

سؤال البنية وعلاقة الفصل والوصل: السرديات الثقافية والتاريخ أنموذجا
Interdisciplinarity and the Relationship between Separation and
Connection: Cultural Narratives and History as a Model

شهرزاد توفوتي^{*}

Schahrazed Toufouti

جامعة محمد بوقرة - بومرداس (الجزائر)

M'hamed Bougara University –Boumerdes/ Algeria

s.toufouti@univ-boumerdes.dz

تاريخ النشر: 2024/12/02

تاريخ القبول: 2024/10/29

تاريخ الإرسال: 2024/09/15

ملخص البحث

يهدف هذا المقال إلى اكتشاف العلاقة بين التاريخ والسرد الروائي من وجهة نظر الدراسات البينية في سبيل إنتاج معرفة جديدة، ومن هذا المنطلق تكمن أهمية البحث في مجال الدراسات البينية في أنها تفتح على الأسئلة المعرفية التي تتعلق بجوار الثقافات وافتتاح النصوص وتقاطع المناهج، بحثا عن سبيل لتنوع المقاربات وتداخلها لقراءة السرد الروائي في علاقته الوطيدة بمرجعياته الثقافية والتاريخية.

يطرح موضوع العلاقة بين السرد الروائي والتاريخ ضمن إشكالية تتم صياغتها في التساؤل الآتي: كيف تكتب السرديات الثقافية انسجاما مع التاريخ؟ وفي هذا السياق الرامي إلى اكتشاف العلاقات المتبادلة للموضوعات والأفكار، تراهن الدراسات البينية على إسقاط الحدود بين الحقول المعرفية، ولبولوج هذا المأرب يتم التوصل باستراتيجيات قرائية تهل من الفكر والسياسة وعلم النفس والتاريخ، ومختلف العلوم الإنسانية، فتضمحل مركزية القراءة الحداثية، ويخرج النص الروائي من ضيق النسق المغلق إلى رحابة التنوع الثقافي، حيث تتم حوارية الأدبي وغير الأدبي على أساس رؤية شاملة تراوح بين فروع المعرفة انطلاقا من فكرة إدوارد سعيد أن السرد تاريخ الذات لنفسها وللعالم، وأن القصص تغدو الوسيلة التي تستخدمها الشعوب المستعمرة لتأكيد هويتها الخاصة ووجود تاريخها الخاص.

الكلمات المفتاحية: سرد، بنية، معرفة، رؤية، فكر

^{*} شهرزاد توفوتي: s.toufouti@univ-boumerdes.dz

Abstract:

This article examines the relationship between history and narrative fiction from an interdisciplinary perspective. It is significant as it highlights the epistemological questions of dialogue of cultures, texts' openness and methodologies' intersection. Besides, it blends different methodologies to explore how narratives connect with cultural and historical references. The connection between narrative and history addresses the question of: How do cultural narratives align themselves with history? Interdisciplinary studies aim to erase boundaries between fields like philosophy, politics, psychology, history and other human sciences allowing broader narrative reading strategies. Thus, the focus shifts from traditional modernist reading to more diverse, open methods that emphasize dialogue between the literary and non-literary. This aligns with Edward Said's thinking that narrative serves as history of the personality as well as a way for colonized peoples to assert, through stories, their own identity and history.

Keywords: Narrative fiction, Interdisciplinarity, Knowledge, Vison, Thinking.

**مقدمة:**

تطرح إشكالية التداخل بين التخصصات وفروع المعرفة المختلفة، مسألة جوهرية تستدعي الوقوف على الأبعاد التي تحدثها عملية الشراكة بين المفاهيم والمقاصد، في ظل عالم تتقاطع فيه الثقافات التي تمتلك علاقاتها ونزاعاتها من الثراء الفتنان ما يمتلكه التاريخ الإنساني عينه. أتاحت ما بعد الحداثة بوصفها توجهًا فكريًا ونقديًا تفاعل الفضاءات الثقافية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والأخلاقية والنفسية متجاوزة مقولات الانغلاق والحدود الضيقة والمركزيات الصارمة المعيقة لحركة التأويل. يجلو هذا الثراء المتبادل بين الثقافات عن حقيقة لا مناص منها، فالفكر الإنساني بحاجة إلى التحوار المستمر واللامحدود و"تعزيز التداول العالمي للأفكار والثقافة عموماً"¹.

يعد إدغار موران أبرز باحث في مجال تداخل المعارف. وكان كتابه الربط بين المعارف أهم مرجع في هذا المجال، فهو خلاصة مجموعة من الدراسات والمؤتمرات لدراسة التداخل المعرفي وتحقيق التواصل بين العلوم وترسيخ العلاقة بين الظاهرة العلمية والإنسانية، وأن العلوم أصبحت تتجاوز حدودها التخصصية من خلال تنقل المبادئ والمفاهيم، ويرجع هذا إلى ما يسميه إدغار موران "المعرفة المتحركة" *la connaissance en mouvement*. تتطوي جهود إدغار موران على فكرة جريئة تدعو إلى ضرورة التداخل المعرفي لضمان الخلق والابتكار والتجديد في الفكر الإنساني وضرورة تجاوز الأحادية العلمية التي سيطرت على نظرية المعرفة مدة طويلة. يدعو موران إلى تبصّر المسألة البينية وأهميتها في البحث عن بوصفها سبيلا معرفيا - متحررا من سلطة المنهج الواحد - يمنح للباحث شساعة في التفكير والتحليل يقوم على مبدأ الحوارية بين العلم والإنسان²، فالأمر يستدعي إلغاء الحواجز المصطنعة بين مختلف المعارف، وإتاحة الفرصة لها للحوار على أساس نسبية المعرفة، فالتداخل إذن يبحث عن صيغة للتواصل بين مختلف الأبعاد المكونة للإنسان، الفيزيائية والبيولوجية والروحية والثقافية والاجتماعية والتاريخية.

يتم إنتاج المعرفة بالتموقع في خريطة الإبداع والقدرة على تحقيق التوازن بين الاكتشاف والتطبيق ضمن مجالات البحث العلمي لتحقيق التكامل بين التخصصات، وهو المطلب الذي تسعى إلى تحقيقه الدراسات البينية في عصر "تتداخل فيه قوى المادة والعقل لإحداث تغييرات جذرية في سلوك الإنسان فيما يتعلق بالطبيعة، ترافقها بالضرورة تغييرات في نظرة الإنسان واتجاهه العقلي، بعيدا عما عهده خلال عهد الحداثة من التفكير السطحي بالحقيقة الراهنة"³ بهذا المعنى يمكن النظر إلى "التقسيم الكلاسيكي للمعرفة إلى حقول معرفية تقليدا جامعا عريقا استقر مع تحديد ملامح مجالات العلوم الاجتماعية والإنسانية التي تطورت منذ أواخر القرن التاسع عشر وواصلت تطورها إلى أن أصبحت على الشكل الذي هي عليه الآن"⁴.

إن الأزمات التي مر بها العالم تدعو إلى التأمل في مشكلاته وقضاياها خاصة مع انتقال المجتمعات إلى مستوى الطرح الذي تفرضه العولمة. في هذا السياق تمخضت عن الحداثة الغربية بمختلف أوجهها مفاهيم استجابة لمتطلبات تربوية وفكرية هي حصيلة انفتاح الإنسان على معرفة تكنولوجية جديدة تدفع بالمجتمع إلى الانخراط في تياراتها المتعددة واعتناق فلسفة التعدد ومواكبة التحولات السريعة التي تتعلق بالمجالات المعرفية والثقافية والاقتصادية والاجتماعية.

أظهرت المتطلبات الديناميكية المستمرة للمجتمعات الحديثة ذات الطبيعة المعقدة الحاجة إلى ما هو أوسع وأعمق من التخصص، ومن هنا بدأت دراسات تبحث في موضوعات من منظور علاقتها بحقول معرفية أخرى، في سبعينات القرن الماضي اصطلح على تسميتها بمنهج الدراسات البينية⁵ وهي فرع من فروع المعرفة تعتمد على حقلين أو أكثر من حقول المعرفة للإجابة على أسئلة ذات أهمية في ميادين البحث.

ونظرا لأهمية التداخل بين ميادين المعرفة، تمثل الدراسات البينية مستقبلا لا مناص منها لتخصصات تدمج وفقها معارف وحقول بحثية مختلفة ومجالات متداخلة. ويكون هذا التداخل منصبا على جهود فرق البحث لبناء رؤية جماعية أكثر عمقا واتساعا وموضوعية "تأهين في تحقيق إنجاز ملموس يسهل أمر قبوله والاعتراف به من الجماعة العلمية"⁶. وفي ظل التحولات العالمية التي ارتبطت بتبعات الحرب العالمية الثانية، بات من الضروري أن يكشف الإنسان ذاته وأن يبقى في تواصل مستمر مع أساليب التجديد لتحقيق رؤية متكاملة يعبر من خلالها على وجوده وتفاعله مع خطاب الاختلاف والتعدد. وفي سياق وعينا بأهمية الفكر البيني لقراءة القضايا المتعلقة بفهم الأفق التاريخي للسرد، هل سنقبل هذا التغيير الذي يحيط بنا ويمارس جاذبية على ما نغترف من المعرفة؟ ما مستويات التداخل بين المعارف على مستوى العلوم الإنسانية؟ هل هذا التداخل بين المعارف أمر محتوم لا مفر منه؟ هل تستطيع الدراسات البينية أن تجيب على أسئلة البحث في العلوم الإنسانية؟

لا يمكن أن ننكر أن التعدد والاختلاف ظاهرة تزيل الفجوة بين المعارف الإنسانية وترتبط بين الثقافات من خلال "بناء التكامل بين المبادئ والنظريات والبحوث العلمية من جهة، وتطبيقاتها العلمية من جهة أخرى. فظهرت في مطلع القرن العشرين حاجة الفيزياء إلى الرياضيات، وحاجة البيولوجيا إلى الكيمياء، فظهرت العلوم البينية التي تؤكد اعتماد التطور والتقدم في علم من العلوم ... كما طرحت أفكار عدة تتعلق بالتكامل بين العلم والدين، وفي التربية والتعليم"⁷.

في هذا السياق الذي يحمل أطروحة تحيل الإنسان إلى إعادة النظر في فلسفة المعرفة، تصبح الدراسات البينية منقذا يسعفه للتصدي لمشكلات المعرفة في نطاق يضع البحث العلمي أمام رهان تقديم رؤية متكاملة للعالم تعتمد على شبكة من المفاهيم والمعايير والأدوات التي من شأنها أن تقدم إجابات عن الأسئلة المتعلقة بوجود الإنسان في علاقته بالكون، ولعلّ السياق المتنوع الذي انبثقت عنه الدراسات البينية يفضي بقراءة تقييمية لمصادر المعرفة وحدودها غير المنتهية لتأكيد حتمية التكامل المعرفي بين العلوم من جهة، ومن جهة أخرى محاولة تمثل أبعاد العولمة ونزعتها التكنولوجية التي غطت على جوانب عديدة من الحياة في النصف الأول من القرن التاسع عشر، حيث أفرزت نسقا جديدا في التعامل مع المعرفة، ارتبط بثورة الاتصالات والثورة التكنولوجية التي اتسع نطاق تأثيرها في شتى ميادين الحياة سهلت خروج الإنسان من المحلية نحو العالمية، والاستفادة من الخبرات المحيطة به داخل فضاء اجتماعي وسياسي واقتصادي متعدد يمتلك عادات وأنماط عيش تفضي بضرورة الانسجام معها، والتعايش مع معطياتها وابتكار آليات جديدة وأساليب للتفاعل

الإيجابي والخلاق مع التيارات الفلسفية، والنظم الاقتصادية، والإشكالات الفكرية، تتولى إعادة قراءة هويته الثقافية وإيجاد حلّ لأزماته الراهنة.

نحتاج إلى رؤية متكاملة تحفز على تحليل وتفكيك المفاهيم والرؤى وصوغ شبكة من العلاقات المبنية على الاختلاف والتنوع بين أشكال المعرفة وإعادة النظر في الخطاب النقدي الكلاسيكي بمقتضياته النظرية والتحليلية التي عزلت الثقافة والمنتجات الإبداعية عن سياقاتها المتعددة. إن مرحلة ما بعد الحداثة مرحلة تدوب معها الحدود تؤثر في المجتمع وفي تقدم العلوم، تتداخل معها التخصصات وتتقاطع فيها الخطوط المعرفية.

الدراسات البينية منحي لا بد منه "لالتحاق بالصرح الفكرية التي يسعى إليها البحث في معنى العالم... فالمشاريع الفكرية تقترح تأويلا للعالم ووصفا للمعرفة"⁸. إنّ الانفتاح على عالم تتعدّد فيه مصادر المعرفة وتنوع اتجاهاتها، يعترف من الوسائط التكنولوجية ومنصات التواصل الاجتماعي وما أفرزته من أفكار جديدة يحفز على التفاعل الإيجابي مع الاكتشافات العلمية في الميادين التكنولوجية والإنسانية تتجاوز بها ضيق التخصص، ولا يتأتى ذلك إلا من خلال فتح قنوات النقاش العابر للثقافات.

أولا/ تمثلات الدراسات البينية: التداخل المعرفي بوابة النقد الأدبي

تقتضي دراسة الأدب أن ننخرط في سياق ثقافي تاريخي لا حدود له، وتجاوز الحدود الضيقة التي ترسمها اللغة. لا يوجد نص ثابت كامل يرضي أفق انتظارنا، إنّما تضعنا الكتابة أمام نص متعدّد وعالم رحب تصنعه فسيفساء من نصوص متداخلة هي جزء من ماضينا، ومستودع رمزي لسجل الأفكار وتضاربها وحواريتها، يقوّض بعضها بعضا.

يؤكد الناقد السعودي سعد البازعي على أهمية التكامل والتخصص الدقيق لقراءة الأدب قراءة مندمجة، يعني ذلك ضرورة المزاوجة بين مختلف فروع المعرفة ومناهج الوصول إليها وما تعجّ به تلك الفروع والمناهج من مفاهيم ومصطلحات⁹. يوحي هذا الطرح بأنّ مجال دراسة الأدب لم يعد من اختصاص النقد وحده وأنّ مجال قراءة المنجزات الإبداعية لا يتوقف عند حدود ضيقة تتعلق بفتح ماض عريق في حياة المؤلف وحده أو قراءة شكلية للغة النص، بل إنّ النص الأدبي ليس بحاجة إلى إعادة تفسيره، إن ما يقدمه المبدع من أجناس أدبية تتراوح بين القصة والشعر والرواية وغيرها من الأشكال التعبيرية الأدبية هي "ظواهر نصية يتعدّر فهمها دون وضعها في سياق الثقافة، بوصفها مفهوما مركّبا يشمل المعرفة والمعتقدات والقرّ والأخلاق والقانون وجميع العادات التي يكتسبها الإنسان بوصفه عضوا في المجتمع، فالروائي ينتهي مادته الروائية من رحم جوهر إنساني هو جزء من ثقافة إنسانية ما"¹⁰.

تمتلك النصوص الإبداعية طاقة من المعاني المضرة تُنتجها تحولات اجتماعية وتاريخية تؤثر على الإنتاج الأدبي وفي الوقت نفسه تدعو الناقد لعقد علاقة شراكة بين في هذا المنعطف، إنّ الوعي بخصوصية التجربة

الإبداعية مرتبطة بعوامل إنتاجها تضعنا أمام مسائل جمة أهمها العلاقة بين الثقافات والمجتمعات بما تحتويه من مخزون لغوي وثراء فكري وإنساني وصراع يرسم بعض ملامح الحقيقة، فالنص الأدبي عموماً جزء من هذا العالم، يرتبط بتاريخ المجتمع وتاريخ الأمة وتاريخ الإنسانية.

إنّ المتتبع لعلاقة السرد الروائي بالمنظومة الثقافية المصاحبة لتكوينه يدرك الغرض المنهجي من إمكانية إدراج مسألة السرديات الثقافية ضمن مدار الدراسات البينية وفي هذا المقام سنعمل على إبراز الصلة بين القضايا التي تطرحها الهوية السردية في علاقتها المتشعبة مع مجال ما بعد الكولونيالية ملتزمين برؤية التداخل بين الأفكار والمناهج لتحقيق الانسجام بين الظاهرة السردية بوصفها تخيلاً، والتاريخ بوصفه حقيقة.

قدّمت كتابات إدوارد سعيد قاعدة متينة تأسست عليها علاقة النص بسياقه الثقافي بما يسمح بقراءة مستمّدة من التاريخ والسياسة وعلم النفس وعلم الاجتماع وغيرها من المعارف التي تتداخل فيما بينها تكشف الطابع الدينامي للخطاب السردية وتفاعله مع مصادره الخارجية، فكل نص يمتلك عبقرية الخاصة، ولكل إقليم جغرافي في العالم عبقرية أيضاً تتصل بتجاربه المتقاطعة الخاصة، وتواريخ النزاع المتداخلة الخاصة به. إنّ أي قراءة لا يمكن أن تلغي هوية نص ما أو كاتب ما، وهوية النص السردية جزء لا يتجزأ من الثقافة المنتجة له، لذا من الضروري أن تتطافر سياقات متعددة يستحضرها الكاتب والقارئ لمواجهة عمليتي الإبداع والتلقي معاً. لم تعد دراسة السرد في المشروع الثقافي ما بعد الحدائي خارج التاريخ بل صارت تتوضع ضمن ثقافة هي وسيط بين الإنسان وما يحيط به من متغيرات، يستلزم "الأمر مراجعة وإعادة النظر في الخلفية المعرفية المؤسّسة للنظرية السردية"¹¹. يعتمد النقد الثقافي على استراتيجية قرائية بالاستعانة باليات التحليل النفسي والسياسية وعلم الاجتماع ووسائل الإعلام في رحلة تفكيك شبكة الأنساق المضمرّة المرتبطة بالإرث الاستعماري، وقد يستدعي ذلك الإلمام بالفلسفات والأطر النظرية والمعرفية للمساهمة في استرجاع الذات المقهورة صوتها على مستوى السرد عبر فاعلية التخييل.

ثانياً/ ازدواجية الجمالي والثقافي: حين يصبح التاريخ جزءاً من الرواية

هل يدل هذا العنوان على أن الرواية تكتب تاريخاً؟ تجيبنا الناقدة والروائية رضوى عاشور في سياق حديثها عن روايتها الطنطورية تقول: "مفارقة أريد للحكاية أن تصبح ذاكرة ووعياً وحساً وانتباها وخبرة، أريد أن تصبح الطنطورة على سبيل المثال أليفة كأننا أمضينا طفولتنا على شاطئ بحرنا... وأريد لصيدا القديمة وبيروت والمحتم التي قد لا يكون معظمكم زارها، أن تنتقل إليكم وتصير منكم ببحرها وزواربها وشمسها وظلّها وحكاياتها وكذلك بيروت بحريها وسلامها وبحرها الأليف والدم المسفوك في شوارعها ومخيماتها. هذا ينجزه الخيال الموثق. عبارة غريبة. أفصد الخيال الذي يجمع كما يعن له وإن تجدر دائماً في وعي الحقائق والوقائع والتواريخ. الشهداء الكثر في الرواية تاريخ يحسن به أن يستقرّ في الخيال، يربط الحكاية الحزينة بأمل ما رغم كلّ

شيء¹². هل هي مفارقة كما قالت رضوى عاشور عندما يتجاوز الأدب والتاريخ ويلتقي عالم الكتابة بعالم الحروب والمقاومة؟ أم أن الرواية تقبل امتزاج الحقيقة بالخيال من خلال استدعاء التاريخ وقفة زمنية للتأمل ومرجعا يدرك الإنسان من خلاله ذاته وعلاقته بالوجود.

يجيل نص رضوى عاشور المنبثق من وعيها النقدي والفني إلى تبصّر فكرة اشتغال السرد الروائي بقضايا الإنسان المتشعبة، وفي هذا السياق الأدبي وغير الأدبي الذي يحيط بجو الكتابة الروائية، تستوقفنا رؤية ميخائيل باختين النقدية وطروحاته المنهجية في مجال مفهوم الرواية، حيث قدّم في هذا الإطار مفهوما للخطاب الروائي يقول: "إنّ الرواية جزء من ثقافة المجتمع والثقافة مثل الرواية مكوّنة من خطابات تعيها الذاكرة الجماعية"¹³. يؤكد باختين على تعزيز الطابع الاجتماعي والإيديولوجي المتعدّد في الخطاب الروائي الذي يحقّق للكاتب حوارية وجهات النظر داخل السرد وتفاعل مكونات الرواية، وكلّما ازدادت الرواية انفتاحا على الواقع صارت قضاياها أكثر تنوعا وتشعبا. يدلّ هذا الثراء والتنوع على العلاقة بين الجانب الإستيطقي والواقع وقابلية الرواية لتحويل التجربة الإنسانية إلى حبكة سردية على صعيد الجماعات والأمم.

إنّ هذا الثراء الذي يصنعه تداخل الجهاز المفاهيمي بين حقول معرفية شتى نرى أنها ضرورية لتجاوز مفهوم القراءة من داخل الرواية دون الاهتمام بمحتوى الخطابات التي يشتغل عليها الكاتب، هي في حقيقة الأمر خطابات هجينة ونسيج من المعاني يجتهد الروائي في التعبير عنها خدمة لرؤاه الفكرية وغاياته الجمالية.

إنّ هذه الصفات المتعلقة بالسرد يتولّى حقل السرديات الثقافية الاهتمام بها، فالسرد يتولّى تمثيل التجربة الإنسانية بوساطة أدبية وعبر أدبية يتفاعل مع الموجهات الخارجية التي تدخلت في صوغ أظلمته، ومعرفة الكيفية التي تجلّت بها مكوناتها السردية، وهو العمل الذي عكف على تحقيقه الناقد عبد الله إبراهيم في مساره النقدي للسردية العربية ولتراث العرب في مجال الأنواع السردية، السيرة والمقامة والرواية، وهذا "ما سيحتمّ انفتاح النظرية السردية على تحليل الخطاب وعلى الشعريات الثقافية والدراسات النسوية والنظرية ما بعد الكولونيالية"¹⁴. يستوقفنا هذا الطرح القائل باشتباك السرد الروائي مع اليومي والفردى والجماعي والثقافي أمام اقتراح قراءة نقد ثقافية متعددة المداخل ذات طابع بيني تستحضر مقولات ميادين معرفية توجه عملية تأويل وتفكيك النماذج السردية من جهة، ومن جهة أخرى تستوقفنا أيضا آليات اشتغال السرد الروائي من حيث هو حدث ثقافي.

إن الخلفية الدينامية التي توفرها الدراسات البينية لدخول معترك البحث في قضايا الأدب وأجناسه التعبيرية، فإن مقارنة أحادية الجانب قد لا تعطي هذا الجنس الأدبي حقه فيصبح "السرد الأرض المشتركة التي يلتقي عليها الكثير من النظريات والتيارات النقدية والفكرية والفلسفية"¹⁵. يدلّ هذا الاهتمام النقدي بالظاهرة السردية على الثراء والغنى الثقافي والاجتماعي للظاهرة السردية في سياق انفتاحها على التحولات التاريخية

والاجتماعية والعالمية، أكتسبت الكاتبة إعادة النظر في موقفه من العالم لبناء رؤى فكرية ذات آفاق تتجاوز مفهوم النص إلى الخطاب، والشعرية إلى الثقافي، والمركز إلى التعدد، في سياق كتابة تعيد للذات مكاتها ضمن الجماعة.

إنّ هذه التحولات التي حدثت على مستوى الكتابة السردية طالت أيضا مفهوم نقد الرواية منذ اتضحت لعلوم السرد الكلاسيكية صعوبة الاشتغال على هذا الموضوع انطلاقا من مظهره الشكلي والوظيفي فقط، وهذا ما يحتم على المقاربة النقدية الاستفادة من الإضافات التي كانت تبلورها العلوم الاجتماعية والدراسات الثقافية والتاريخية، من خلال التركيز على قضايا وأسئلة غيبتها النقد البنوي والمقاربات المحايثة.

يهتم النقد الثقافي بشكل مركزي بالثقافة التي تشكلها المعاني والتمثيلات بواسطة استراتيجيات دالة في سياق الممارسات الإنسانية، وصارت مجالا تنافسيا "للمعاني والصيغ المختلفة حول العالم"¹⁶. لم تظهر القراءة النقد ثقافية إلا استجابة لمطالبات ما بعد الحداثة التي أحدثت قطيعة مع المناهج البنوية والشكلانية التي اختزلت هوية النص في بناء اللغوية المجردة ونأت به عن سياقاته الخارجية.

تعدّ الرواية أحد أشكال الثقافة التي اهتم بها الناقد والمفكر إدوارد سعيد في كتاباته وركز عليها في تحليلاته لها وعلى مفهوم السرد في بعده عبر اللساني، حيث "لا يلغى النموذج الثقافي الخاصة الاستيعابية للسرد، ولكنه لا يفصلها عن سياقاتها الثقافية والرمزية والإيديولوجية، وبهذا المعنى نرى أن السرد باعتباره علامة دينامية يتم فصل وفق نظام ترميز مزدوج أدبي- ثقافي يعكس رهانات الاستراتيجية السردية، حيث تستحضر سياقات الهوية والتمثيل والتاريخ وتجاذبات المعرفة والقوة من أجل فرض تصوّر معين للعالم"¹⁷، يعمل على فضح عيوب الثقافة من خلال تفكيك مضموماتها الإيديولوجية المسكوت عنها.

يقوم السرد على التخيل بما هو القدرة على إنتاج نسق من الأفكار والدلالات المرتبطة بالواقع في لحظة زمنية، تساهم في تكوين المنظور الذي تعين منه الثقافة في علاقتها بالتاريخ والمجتمع، ينتج عن ذلك خطاب يتم من خلاله إعادة كتابة تاريخ الذات من وجهة نظر نقدية تكشف المسكوت عنه في الذاكرة، "حيث يتم استحضار سياقات الهوية واشتباكات التخييل والقوة في التأويل"¹⁸.

يتطلّع الناقد الثقافي في قراءته للسرد الروائي إلى الاحتكام إلى وعي معرفي متعدد وشمولي للتوغل في تلافيف الظواهر الثقافية، يكشف ما خلفها من تحيزات غذتها إيديولوجيات كبرى تستند إلى تصورات ثقافية معقدة. ولتحقيق ذلك يتم كشف التمثيلات السردية التي تم تكوينها داخل بني ثقافية متصارعة. فالنقد الثقافي يؤمن بضرورة التواصل مع علوم معرفية مختلفة الميادين، ونعني بذلك علم النفس والتاريخ وعلم الاجتماع والأنثروبولوجيا لتناول السرد من منظور عابر للمعرفة.

الرواية جنس أدبي أكثر اشتباكا بالواقع التاريخي وبالفكرة المجردة والحياة التي تستعصي على التجريد ودمج التسجيلي بالمتخيل، في إطار بنية متكاملة تحيل إلى معنى كلي يخلخله نسيج لا تخضع عناصره جميعا لذلك المعنى، بل تنفلت من أسره لتولّد بدلا من المعنى الواحد القاطع، معان مفتوحة على المتعدّد من التأويلات. ستسمح هذه العلاقة المتشابكة بين التاريخ والكتابة الروائية بمقاربة الأفق الثقافي التاريخي المتوعّل في قضايا التمثيل والغيرية وصور الآخر وأهمية الوعي التاريخي في تشكيل عالم متخيّل تحاك ضمنه صور الذات عن ماضيها وكيوتتها.

حيث لا يتم إلغاء دينامية السرد الروائي بمعزل عن استنطاق استراتيجيات الترميز التي تجعل التاريخ والتراث ليس مادة قديمة غير صالحة إلا للتكديس على رفوف المكتبات والمتاحف، كما يقول الناقد عبد الله إبراهيم، إنما هو نصوص حياة تستدعيها استراتيجيات التمثيل السردية وإعادة كتابة الماضي ليس بوصفه فاصلة زمنية عابرة يتم استحضارها لقدسيّتها، وإثما بوصفه لحظة مضيئة تمكن من خلالها الذات استرجاع صوتها وامتلاك القدرة على إعادة تمثيل صورها وتاريخها خارج تخطّيات الآخر المشوّهة للأنا.

فلا مناص أن الكتابة السردية ليست بنية ساكنة منقطعة عن أحداث التاريخ، وهي في الوقت نفسه ليست مدوّنة تاريخية، إنّها متخيّل يستمد ديمومته من التفاعل المستمر مع الذاكرة، وخطاب مرتحل يجوب أقطار الغرائبي من جهة، ومن جهة أخرى ينتهك سياسات القوة بالخيال وصور الإسكات بالسخرية. إنّ السرد الروائي إعادة تشكيل جمالية يرتبط بالثقافة في شتى تحولاتها، يطرح أسئلة ثقافية تتنازعها الذات في مواجهة الآخر علاقة تخترق التاريخ الفردي والجمعي، فانفتاح المتن الروائي على الواقعة التاريخية يعني إعادة بناء الهوية الإنسانية.

ثالثا/السرديات الثقافية في ضوء النقد ما بعد الكولونيالي: الهوية، الأنا، الآخر، مفاتيح السرد

نحاول في هذا المبحث التركيز على العلاقة بين النقد الثقافي بما هو استراتيجية قراءة تتوسّل بأدوات النقد ما بعد الكولونيالي لتفكيك أنساق مضمرات الثقافة في عالم يسوده التمرکز وسيادة القوى التي تؤمن بالسيادة والقوة.

يربط إدوارد سعيد في كتابه (الثقافة والإمبرالية) بين نشأة الرواية والتوسع الاستعماري الذي يفسّر الكثير من عناصرها ومجريات أحداثها، حيث استوفقت كتابات الروائيين الإنجليز والفرنسيين الذين أسهموا من خلال الرواية في ترسيخ ودعم أفكار الهوية الإنجليزية، وقدم قراءة جريئة وواعية للواقع الاستعماري توقّف فيها على مفهوم السرد ومسار البطل في روايات: أوليس لجويس، و(البحث عن الزمن المفقود) لبروست، و(الغريب) لكامو، وغيرها من الروايات الأوروبية.

فتح إدوارد سعيد الباب واسعا أمام كتابة نقدية عرفت باسم النقد ما بعد الكولونيالي، وهو أحد فروع النقد الثقافي. يقصد بالنقد ما بعد الكولونيالي الدراسات التي تبحث في العلاقات الثقافية بين الغرب بوصفه مستعمرا وما يقع خارج الغرب من دول وقعت تحت طائلة الاستعمار. اهتم النقد ما بعد الكولونيالي بتفكيك خطابات القوة والهيمنة وإعادة كتابة تواريخ الشعوب المستعمرة من منظور نقدي "يكشف المسكوت عنه في الذاكرة، وفي استنطاق سياسات التمثيل في صراع القوة والصور، وفي تفكيك أوهام الإيديولوجيا، وفي نقد الهويات القائلة، والتحليل الدقيق لاستراتيجيات السلطة"¹⁹.

لعل أهم من خاض في مجال ما بعد الكولونيالية إضافة إلى إدوارد سعيد- نذكر فرانس فانون من خلال كتابيه (بشرة سوداء أقنعة بيضاء)، وهومي بابا (موقع الثقافة)، وغيثاري سبيفاك (هل يستطيع التابع أن يتكلم)، وميخائيل باختين من خلال حوارية الذات المتكلمة مع الآخر. قارب هؤلاء الكتاب تحيزات الخطاب الاستعماري وما بعد الاستعماري، وكان القاسم المشترك بين هؤلاء مسألة المركز الإمبريالي مقابل الهامش الحواضري.

ركّزت تحليلات إدوارد سعيد في مجال نقد الهيمنة الناتجة عن عمليات التوسع الاستعماري الذي شنّه العدوان الإمبريالي من قبل الدول العظمى أمريكا وفرنسا ضد الشعوب الأصلية على علاقة الأرض بالقصص التي تسردها الأمم والجماعات المستعمرة لتأكيد هويتها الخاصة ووجودها، ولا شك أن المعركة الرئيسة في العملية الإمبريالية تدور حول الأرض، لكن حين تتوغل في بؤادر الصراع تنجلي الأزمة حول من كان يملك الأرض ويملك حق استيطانها. نتج عن هذا الصراع كتابات من قبل الكتاب والمفكرين الأوروبيين دافعت بقوة عن المشروع الاستعماري، وسوّقت صورا دونية عن الشعوب المستعمرة. تكشف هذه الكتابات عن "انخراط وتورط الخطاب الروائي في تعزيز الرؤيا الإمبريالية حيث يشتبك الخيال بالإيديولوجيا الإمبريالية حول الاستيطان والأرض والأهالي، ويرثع عبر منظور سردي متحيز للقوة في تمثيل الآخر"²⁰.

اهتمت السرديات الثقافية ما بعد الكولونيالية من حيث هي سرديات مضادة تركز على التاريخ بصفته نضاً، وعلى النصوص بصفتها تاريخاً "فنحن لا نملك الماضي كما جرى إذ لم نعشه كتجربة مباشرة بل لم يصلنا منه سوى سجلات متباينة، أي نصوص تواريخ تعرضت للانتقاء والإسقاط"²¹، يبدو أن الصراع حول الأرض تبعه صراع ثقافي أجمع الهوية بين الذات المستعمرة والآخر الهامش، وقد احتضنت أشكال ثقافية هذا الصراع ونعني بها الرواية. يعتقد إدوارد سعيد أن عظمة الرواية تتجلى في صياغة وجهات النظر والتعبير عن التجارب الإمبريالية.

في سياق تشابك القضايا المشتركة بين السرديات الثقافية، والنقد ما بعد الكولونيالي، والتاريخ والقارئ الذي يتفاعل معها والناقد الثقافي الذي يقوضها، تأخذنا القناعة إلى "أنّ الواقع الاجتماعي لا يتسم بالتجانس بل

هو صراع تتعدد فيه القوى والبنى وأشكال الخطاب ومستويات التمثيل²². وفي هذا السياق بإمكاننا التسليم بصياغة قراءة متباينة التخصصات يمكن اعتماده اتجاهها نقديا يسهم في بلورة خطاب متعدد ومركب عابر للثقافات. فكل هذه التوجهات "محاولات نقدية بينية يقوم بها دارسون يحاولون بها مجابهة عالم سريع التحول تكون فيه الأفكار حول الثقافة واللغة والأمة والتاريخ والهوية في عملية تغير مستمر"²³.

رابعا/السرد الروائي وكرونوتوب التاريخ: عندما يعاش الزمان التاريخي سردا

نحاول في هذا المبحث استجلاء العلاقة بين السرد الروائي والكرونوتوب بما هو التفاعل المتين بين الزمان والمكان حسب مفهوم ميخائيل باختين. وفي الوقت نفسه سنوضح تعلق حقل السرد من حيث هو كتابة إبداعية متخيلة مع حقل نقدي تعود مرجعيته الأصلية إلى حقل العلوم التجريبية. استعار باختين مفهوم الكرونوتوب من حقل علمي خالص نعني به فيزياء آينشتاين لكن ليس على سبيل المطابقة الحرفية لعنصري الزمان والمكان على المستوى العلمي، وإنما على سبيل استعارة مبدأ الانصهار والتماهي بينهما في الرواية.

اعتنى الدرس النقد الحواري في كتابات باختين- بالرواية بما هي فن يمتثل الزمان والمكان، يدعو باختين هذه العلاقة المتداخلة بينها بالكرونوتوب، وبهذا المعنى يتجاوز الناقد الروسي في تحليلاته للرواية الأوربية (البحث عن الزمن الضائع لبروست، وجيرمينال لإميل زولا مثلا) كونها مقولتين فيزيائيتين بل بوصفها زمان تاريخي ومكان اجتماعي يتعين في سياق ما، يستمد هذان العنصران أهميتهما من الوقائع والأحداث التي يعيشها الإنسان ويتم إدراكها على مستوى السرد بالاستعانة إلى وجهات نظر مختلفة في رؤية الوقائع، وتبعا لعلامات نصية وقرائن مقصودة لها دلالات تاريخية تستعين بأرشيف الذاكرة في رسم مسار الأبطال، تقودنا إلى فهم العلاقة المتينة بين المتخيل والمرجع الحقيقي للأحداث.

تحتفي السرديات الثقافية بموضوعات الشتات والمنفى وكتابات اللاجئ والمهمشين، وهي موضوعات تستدعي تقاطع مجالات معرفية متنوعة: سياسية وثقافية ودراسات ما بعد كولونيالية لتمثيل علاقة الزمن التاريخي بالمكان الذي تتجسد فيه الحكمة السردية، ويتعلق فيها الزمان السيري بالأمكنة التي تألفها الذات أو تنفر منها، والزمان الاستعماري بالمكان المدجج بالخوف والشتات وصراخ اللاجئ، والزمان الفلكلوري بالمكان الموعول في السخرية، والزمان الرحلي بالأمكنة المترامية الأطراف، يجول بها السارد جغرافيا لا حدود لها تضع كل شيء موضع التأمل والمساءلة والتحليل في سبيل احتفاء الذات الكاتبة بجاليات الموضوع من جهة، ومن جهة أخرى التماهي مع الموجودات في شكل حوارية ممتدة الأزمنة بين الهويات المختلفة.

إنّ التاريخ الذي أشار إليه باختين في تحليلاته خاصة في كتابه جالية ونظرية الرواية يتضمن دلالات جالية وايدولوجية وثقافية يسترجعها السرد الروائي في شكل تمثيلات تختزل أزمات الأمم وما خلفته الحروب والانتكاسات ومشاهد الخوف والموت على أيدي الاستعمار، هي في حقيقة الأمر مشاهد ذات طابع سياسي

وتاريخي تركت آثارها على المجتمعات والشعوب تجلّت في شكل أفكار وهواجس فلسفية وموضوعات قابلة للنقاش والجدل تقدّم تفسيرات لحركة التاريخ على أيدي مفكّري ومنظري ونقاد ما بعد الحداثة، انصبّ اهتمامهم على دراسة وتفكيك الخطاب الإبداعي في إطار الصراعات العالمية، واستغلال طبيعة الكتابة السردية المتخيّلة وخصوصيتها، لتكون إحدى الأسس التي تقوم عليها إنتاج قراءة لا تكنني بالغوص في جاليات النصوص السردية والافتتان بلاغتها التعبيرية فسب، وإثما اقتراح مقارنة تحاور الطبيعة الإنسانية للسرد على مستوى الشكل والمضمون. بهذا المعنى فإنّ الرواية لا تمتلك ماهية واحدة ولا تتضمن معنى أزليا، فهي الجنس الأدبي غير المكتمل تنصهر في ثناياه تعددية صوتية غزارة تعبيرية تعزّزها كثافتها اللغوية وطابعها الهجين.

يمتلك الخطاب السردى بفضل شرطه التاريخي وطابعه الكرونوتوبي القدرة على تحويل العالم إلى نص متخيّل يحتاج إلى قراءة متعدّدة الجوانب تستمدّ أدواتها من مجالات المعرفة المختلفة لا تعترف بالحدود الفاصلة بين العلوم والتخصصات، وتبتعد عن القطيعة التي فرضتها المناهج المحايدة مثل البنوية والشكلانية التي فرضت نظما واحدا لمقاربة النصوص يحيل إلى نتائج موحدة تبعد النص عن سياقاته الخارجية وظروف تكوّنه.

في هذا السياق رأى باختين ضرورة الاهتمام بالسياق الواصل بين النص والكتاب والإنسان والتاريخ في سلسلة تصل الزمان الماضي بالحاضر والمتزل العتيق بالوطن الكبير، في علاقات تدعو إلى التأمل والتساؤل حول الإضاءات التي تثيرها هذه القضايا من حيث تواسجها- في ذهن المتلقي للبحث في أسرارها والاعتكاف على خوض غمار مقاربتها، ومن هنا لابدّ من الاحتراس في اختيار الأدوات القرائية التي يخرق بها الحقب الزمنية والسير الذاتية والمنافي ودروب الرخالة المتخيّلة وما تحمله أصوات الشخصيات من تلميحات وما تنقله اللغة من رسائل مضمرة عن المهمشين والفتائين والمطاردين، يحتضنها السرد الروائي في نسيج محكم هجين تجسّده الكتابة فلسفة خاصة بالكون والعالم.

خاتمة:

إن الاهتمام بموضوع الدراسات البينية في علاقتها بالسرديات الثقافية لا يمكن اختزاله في مجرد عرض لمناهج قرائية متقاطعة أو متداخلة فيما بينها، وإنما يدعوننا إلى تأمل وبحث استراتيجيات تفعيل المقولات النظرية لكليهما على المستوى الإجرائي أثناء قراءة النصوص الأدبية عموما والخطابات السردية خاصة، فرضها تلاشي الحدود بين الأنواع الأدبية والالتفات إلى ظروف نشأة الظاهرة السردية. وبقدر ما نحن بحاجة إلى ابتكار جاليات جديدة، نحن بحاجة إلى:

-افتتاح أنماط المعرفة على بعضها سعيا إلى قراءة تستفيد من التجارب العالمية الملائمة لأوضاعنا الاجتماعية وخصوصيتنا الثقافية، وضرورة ربط العلوم فيما بينها وتجاوز صرامة التقسيم بين الخطابات وفواصل الخطاب كما يرى ميشيل فوكو بكفاءة علمية جادة، وذلك يتطلب منا الاحتكام إلى إجراءات قرائية تُفكّك بها شفرات

الظاهرة الأدبية والنص السردى على وجه الخصوص بالاستعانة بأدوات نقدية تراعى خصوصيته وهويته الثقافية وعلاقته بنصوص أخرى تشكّلت في لاوعي الكاتب. إنّ الممارسة النقدية الثقافية التي أنتجها الفكر ما بعد الحداثي تقود تفكيرنا نحو الامام بالطبيعة الثقافية للمختل السردى مع مراعاة مستوياته الأسلوبية والتركيبية وتنوع ظروف تكوينه التاريخية والاجتماعية والسياسية وغيرها، دون أن نهمل تأثير التحوّلات الثقافية في إنتاج معرفة ذات طابع شمولى للكون ومنفتحة في ظلّ ظهور مفاهيم مثل مجتمع المعرفة، والنص المرئي، بفضل تعدّد الوسائط التكنولوجية والانفتاح على العولمة، و حركة التطور السريع للعالم نحو الاهتمام بكل ما يقرب الإنسان نحو أهدافه وغاياته بالاعتماد على الكفاءة التكنولوجية. -عدم اختزال هوية الظاهرة السردية في مجرد أشكال ووحدات لسانية صغرى مقطوعة الصلة عن موروثها الثقافى المتنوع والمختلف، فالخطاب الروائى يمتلك خصوصية تاريخية مفعمة بالتناقضات والمفارقات والتجارب، تستوقفنا للإحاطة بها وتحديد موقفنا الثقافى من قضاياها الإنسانية.

هوامش:

¹ غاياتري تشاكرافورتى سببفاك، هل يستطيع التابع أن يتكلم؟ تر/خالد حافظي، السعودية، صفحة سبعة، ط1 2020، ص7.

² Voir Morin, Edgar. Science avec conscience, Paris, Seuil, 1990, P30.

³ فتحي حسن ملكوي، مفاهيم التكامل المعرفي، ضمن كتاب التكامل المعرفي: أثره في التعليم الجامعي وضرورته الحضارية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي - هرنند - فرجينيا - الولايات المتحدة الأمريكية، ط1، 2012، ص24.

⁴ أ.د. بركات عبد العزيز، الإشكاليات المنهجية في الدراسات البينية، المجلة العربية لبحوث الإعلام والاتصال، مصر، جامعة الأهرام الكندية، مج4، ع 13، 12، يونيو 2016 ص ص6.

⁵ ينظر: المرجع نفسه، ص5.

⁶ فتحي حسن ملكوي، مفاهيم التكامل المعرفي، ص20.

⁷ المرجع السابق، ص21.

⁸ ينظر: عبد الله إبراهيم، المطابقة والاختلاف، الرباط، مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث، ط1، 2018، ص9.

⁹ سعد البازعي، الدراسات البينية وتحديات الابتكار، مجلة جامعة الملك سعود، الآداب (2)، الرياض، 2013، ص 221.

¹⁰ إدريس الحضراوي، السرد موضوعا للدراسات الثقافية نحو فهم لعلاقة الرواية بجدلية السيطرة والمقاومة الثقافية، مجلة تبين، مج 3، ع 7، ط 2014، ص109.

¹¹ محمد بوعزة، سرديات ثقافية، من سياسات الهوية إلى سياسات الاختلاف. منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2014، ص33.

- ¹² رضوى عاشور، لكل المتهورين أجنحة، مقالات (عن رواية الطنطورية يوم توقيعها في دار الشروق)، دار الشروق، مصر. ط1، 2019، ص50.
- ¹³ Mikhail Bakhtine. Esthetique et theorie du roman. P237. Traduit du Russe Par Daria Olivier. Préface de Michel. Acouturier. Edition Gallimard.1978.
- ¹⁴ محمد بوعزة، سرديات ثقافية، ص35.
- ¹⁵ إدريس الحضراوي، السرد موضوعا للدراسات الثقافية نحو فهم لعلاقة الرواية بجدلية السيطرة والمقاومة الثقافية، ص108.
- ¹⁶ كريس باركر، معجم الدراسات الثقافية، تر/جمال بلقاسم، القاهرة، رؤية للنشر والتوزيع، ط1، 2018، ص224.
- ¹⁷ محمد بوعزة، سرديات ثقافية من سياسات الهوية إلى سياسات الاختلاف، ص37.
- ¹⁸ المرجع نفسه، ص39.
- ¹⁹ المرجع نفسه، ص40.
- ²⁰ محمد بوعزة، سرديات ثقافية، ص41.
- ²¹ رضوى عاشور، لكل المتهورين أجنحة، ص24.
- ²² رضوى عاشور، لكل المتهورين أجنحة، ص63.
- ²³ سوزان باسنيت، الأدب المقارن (قراءة نقدية)، تر/ أميرة حسن نويرة، المشروع القومي للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، 1999، ص98.

قائمة المراجع:

- إدريس الحضراوي، السرد موضوعا للدراسات الثقافية نحو فهم لعلاقة الرواية بجدلية السيطرة والمقاومة الثقافية، مج 3، ع7، 2014.
- محمد بوعزة، سرديات ثقافية، من سياسات الهوية إلى سياسات الاختلاف. منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2014
- فتحي حسن ملكاوي، مفاهيم التكامل المعرفي ضمن كتاب التكامل المعرفي: أثره في التعليم الجامعي وضرورته الحضارية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، هرندين-فرجينيا-الولايات المتحدة الأمريكية، ط1، 2012.
- رضوى عاشور، لكل المتهورين أجنحة الأستاذة تتكلم، مقالات، دار الشروق، مصر، ط2019، 1
- سوزان باسنيت، الأدب المقارن (قراءة نقدية)، تر/ أميرة حسن نويرة، المشروع القومي للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة، مصر.
- سعد البازعي، الدراسات البينية وتحديات الابتكار، مجلة جامعة الملك سعود، الآداب(2)، الرياض، 2013.
- كريس باركر، معجم الدراسات الثقافية، تر/جمال بلقاسم، القاهرة، رؤية للنشر والتوزيع، ط1، 2018.

- عبد الله إبراهيم، المطابقة والاختلاف، الرباط، مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث، ط1، 2018.

-Mikhail Bakhtine. Esthétique et théorie du roman Traduit du Russe Par Daria Olivier.
Préface de Michel. Acouturier. Edition Gallimard.1978.